

## المنعطف

استفاقت متأخرة بعض الشيء، سوت هندامها على عجل، نظرة عاجلة في المرأة  
- تستحقين اميرا يا نهال  
نفخ ابو محمد بوق سيارته يستعجلها. ركضت مسرعة تقضم نفاحة بيد وترفع محفظة كتبها باليد الاخرى.  
طرقات حذائها فوق درجات السلم تذكر المثلثيين من الجيران ان الساعة قاربت السابعة ويوما آخر من هذه  
الايام الحبلى بكل ما لا يسر قد غدّ خطاه.  
- كيف الحال عمي ابو محمد  
- يستر عليك ويحمي شبابك يا ابنتي  
لاول مرة تفكر كم من المعاني تحمل هاتين الكلمتين "يستر عليك"! لو ان دعاء كهذا احاط جارتهم اميرة  
لما جرحتها الاشاعات كم جرحت. . . انتحت مقعدا وغاصت باحلام وتأملات. استرجعت طعم تلك القبلة  
التي خطفها منها عليّ عندما خلا لهما الجو في المصعد لبعض لحظات.  
- كم كنت متهورة يا نهال! ماذا سيقول فيك الفتى؟ ماذا سيخبر اصحابه؟ ماذا لو وصل الامر لابيك او اخيك؟  
! . . . رب! استجب لدعاء "ابو محمد"!

ابو محمد يجوب ارقعة حارة حريك وبرج البراجنة وحي السلم، وعند كل وقفة له، يندفع الى قلب الباص بعض  
صبايا او فتيان في اعمار متشابهة . . . عند الرمل العالي كانت السيارة "الوتوكار" قد لملت حملتها  
واتجهت هانئة الى معهد سبيلين . . . أشهر قليلة وتنتخرج نهال معلمة من دار معلماتها . . . لم تكن هذه  
المهنة مما يستهويها بل كانت من افضل ما تيسر. لو كان والدها أيسر حالا لكانت الان على مقاعد الجامعة  
الامريكية على عتبة ان تمسي مهندسة او طبيبة. لو لم يكن ابوها من قرية جبلية وعاش عمره كله بين  
عشيرته في مخيم البرج لكانت دخلت معهد الفنون ودرست الاخراج والتمثيل. فجمالها: "ولا ممثالات السينما!  
. . . هذا ما تقول به "امها وعمتها وعشرة من جيرتها". بل هذا ما تراه في العيون المبلقة، عيون الكهول  
قبل الشبان  
- أشكري ربك يا نهال فانت افضل حالا من الكثيرات. غدا تتخرجين والوظيفة مؤمنة لن تدوري على الابواب  
والاعتاب خلف الوظيفة. من يعلم؟ ربما ارسل الله ابن الحلال مهندسا او طبيبا يعوضك هذا الوضع  
البرجوازي الذي يدغدغ أحلامك

كان احمد آخر من صعد الى الباص. حيا "الحمولة". أغلبها من الفتيات  
- والله لا اعرف لماذا تحب بنات هذه الايام وجع القلب، والله لو كنت بنتا لكنت لا ازال ارقد هانئا اغرق  
بالاحلام الوردية.  
صبايا! . . . لماذا الهم والغم والركض وراء الشهادات؟ غدا يحمل واحدتك ابن الحلال وتذهب كل اتعابها في  
الجلي والغسيل وتربية الاولاد  
- خلينا من نصائحك الله يخليك  
- كله إلا انت! شعرك الاصفر وحده يجلب لك احسن عريس  
- قلت لك انكتم  
- . . .  
- إفرض يا منظوم انني تزوجتك وبعد كم سنة خطفتك سيارة مفخخة او غارة اسرائيلية او اشتباك اخوي او  
خطفوك على الحاجز، ماذا يحل بي وباولادي؟ أشحذ على باب الجامع؟!  
- والله انت اكبر مغرورة وعقلك اعوج! أنت فيلسوفة زمانك! أورثوك الفلسفة عندما سموك نهال. من اين  
جاءوك بهذا الاسم الغريب العجيب؟!

- اسم فيه فن! . . فيه موسيقى! . . . أسم مختلف. يترك اثرا في الاذن والقلب. ليس مثل اسمك نصف رجال العالم يتسمون به.

- اسم قديم وله دلالة. . . نهال قال! ! . . . هه!

- ليس اقدم من عقلاتك، والله انك ما تزال تعيش بسرورال جنك، وتفكر ان آخر الدنيا حي كويكات في المخيم انطلقت الفتات مقهقات، قفشتك يا حموده

...

تغرق ثانية في تأملاتها. هذا البحر الناعس وموجه الكسول ينكرها باحد البرامج الامريكية التي شاهدتها البارحة على شاشة التلفزيون

لماذا يجوز لهن ما لا يجوز لنا؟ لماذا لا يمكنني ان اجالس شابا ما ولو مجالسة بريئة إلا بعد كتب الكتاب؟ لماذا علي ان اتصنع الممانعة والغضب عندما يختطف قبلة مني ابن الجيران في غفلة من العيون في حين انني انا التي اكون قد خططت لهذه الخلوةول هذه القبلة؟! . . . لماذا لا يحق لي ان ازهو بهذه الجمال الذي وهبني اياه خالقي؟ لماذا يكون الذنب نذبي عندما يثير هذا الجمال وغدا . . . لماذا لا يحق لي ان ادخن سيجارة إلا في الحمام ؟ لماذا يجب ان اقفل نافذة غرفتي التي تبعد مئات الامتار عن النافذة الاخرى إذ انه قد يعن لآخرق ان يبصص علي بالناصور؟ ! . . .

في زاوية اخرى راحت رنده تشكو كم هي تعب. . . أمها مهووسة بالنظافة، تجبرها على غسل النوافذ والحيطان والبلاط وحتى ما تحت البلاط، كل اسبوع، كل اسبوع. أصبح لها شقة، بعدة غرف، بعد طول عمر فعشقتها. أحببتها اكثر ما احببتنا

- يا عيني على دلع البنات، ماذا تقولين لو انكم ما زلتم في "سعسع" وعليك القيام قبل طلوع الفجر لقطف الدخان وشكه قبل حموة الشمس  
- انت اسكت دعنا من تعليقاتك ! ؟

...

دعد تشكو خطيبها الذي أجل رجوعه من السفر للمرة الثالثة

- غير رأيه أخينا! هرب بجلده. ها. . . ها . . . ها

- مهضوم والله ! ايه طبق على الباقي

- ولا يهمك دعوته، أنا عندي عريس أحسن منه

تتهكم سكينه على استاذ معروف وحماسه للنظرية التعليمية الجديدة . يظن صاحبنا اننا في باريس.

مشاركة الطلاب قال! ! . . . إلغاء دور الاستاذ! إلغاء العقاب والثواب . . . هه مدارس آخر زمان! ! . . .

ونطبقها في صبرا وشاتيلا ومار الياس! ! والله لو طبقناها لعلقوا لنا الحجر المقدوح! !

من الجهة المقابلة التفت فادي معلقا، إسمعوا اقوالهم ولا تفعلوا افعالهم، خذي الشهادة اولاً ثم لكل حادث حديث

- رجاء يا حلوات اريد ان اسمع اخبار

- عمي ابو محمد لا تتعب قلبك. اخبار اليوم مثل اخبار الامس

على المقعد الخلفي تتوقع وائل وحسان يلهوان بلعب الورق. قبالة شاطئ خلد هبت رائحة البحر قوية منبهة للحواس. تنشق وائل نفسا عميقا فيما هو يتفحص ورقه: انتشي برائحة البحر، لو ان الدين يسمح لوصيت ان يدفنوني في البحر لا تحت التراب

عند حاجز خلدة صمت الجميع. وما ان تخطت السيارة الحاجز حتى عز على "عزة" الهدوء فانطلقت متأثرة

بالجو التشرييني المسيطر "ورقو الاصفر ذهب ايلول تحت الشبابيك ذكرني فيك"  
تغامزت الفتيات, الكل يعرف ما نظنه سرا. الكل يهمس بتلك العاطفة الناشبة بينها وبين عدنان من معهد  
الصحة.

زق بوق ابو محمد مولولا : ابن الحرام كان رمانا في البحر

...

التفتت نهال الى ساعتها

- قاربت الساعة على الثامنة. اسرع قليلا عمي ابو محمد من فضلك  
- بامرك يا ست الحلوات. . . وانعطفت السيارة ذات اليمين. كادت تصطم باخرى  
- يخزيك يا شيطان! على كل لا تحملي هم عمي خمس دقائق ونصل

في وادي الزينة عند منعطف يتفرع عن طريق صيدا, تعارفوا على تسميته "مفرق سبلين" انعطفت السيارة  
شمالا. . . فجأة هدير طائرة رابعة يملأ الفضاء:

- خرق جدار الصوت!! . . .

اسرائلي؟

سوري؟

مدني!! . . . . .

كنا نقلب فناجين قهوتنا لتقرأ لنا ام عدنان بختنا عندما انطلق صوت المذيعة ليعلن : جاءنا من مكتب  
التحرير ان غارة اسرائلية قصفت الشريط الساحلي لاقليم الخروب وقد تعقبت إحدى الطائرات باصا يحمل  
طلابا الى معهد سبلين. شوهدت بقايا الباص موزعة في المحيط ويقدر ان جميع الركاب مع سائقهم قد لاقوا  
حنفهم

شبعنا ما تبقى منها و كان شعرها الاصفر متناثرا فوق اشواك القندول والصخور على جانبي الطريق من وادي  
الزينة الى سبلين

نجمة

سدني: ٢٩/١١/٢٠٠٠

## حدث هذا الصباح

أصابها بعض تهيب فيما هي تنزلق نزولا صوب البحر في شارع عمر المختار, جو جانزي مهيب يسيطر على المكان, حتى بحر غزّة بدت زرقته أشد قتامة واعتري موجه خمول فبدى مترنحا متعبا قبل ان يتلاشى عند اقدام الرمال التي خبت ذهبيتها. كانت آثار اضراب الامس لا تزال تترك بصماتها على المدينة وسوقها. فقط بعض مخازن الاغذية فتحت ابوابها لتلبي حاجيات الناس الضرورية. قُل أن صادفت في طريقها نساء. ولا حتى رجالا. . . حتى السيارات لم تكن على حركتها المعهودة فلا ابواق ترتفع من هنا وهناك ولا تحيات صباحية متناثرة بين هذا السائق وذاك ولا ايد تلوح معترضة لهذه المجاوزة او تلك. فقط طلاب المدارس الغادين الى صفوفهم بعيون انطفأ منها بريق الطفولة وحماسها يثيرون نبض الحياة في هذا الصباح الحزين. كم بدا لها مؤنسا ذلك البدوي العجوز الذي كان يراقب غنماته وهي ترعى العشب النامي حول قبر الجندي المجهول! .

تابعت سيرها, تفقدت الطفل الصغير الراقد في العربة امامها. حاذت المبنى الذي لا يزال بالنسبة لها المجلس التشريعي فيما اطلقوا "هم" عليه مبنى الحاكم العسكري العام, مبنى يختبئ خلف سور يتقدم ويرتفع يوما إثر يوم قاضما ما حلاله من عمق الطريق ضاربا عرض الحائط بحاجيات المدينة وجمالياتها. . عند ركن من اركان هذا السور الدخيل كان يجلس على مقعد خشبي مستطيل جنديان من جنودهم يبدو انهما يقومان على حراسة المكان. وعلى بعد بضخ خطوات كان يقعي ركباً شابان عربيان في حوالي الرابعة عشرة من العمر. منكسي الرأس ويديهما مغلولتين خلف ظهرهما. خطأ احد الجنديين بضخ خطوات وعلى بعد أشبار منهما تبول بالامبالاة سمجة دون ان تبدي ملامحه اي اعتبار للكائنين المحاذيين. . . غذت خطاها مكملة طريقها متظاهرة بعدم الاهتمام.

- ترى بأي ذنب رمي هذين الولدين! . . . ترى ماذا سيفعلون بهما! . . . حسرتي على امهما عندما يجيئهما الخبر. . . ليتني حدقت في وجهيهما فتعرفت عليهما. . . على احدهما على الاقل. . . ليتني تطفلت وسألت الجندي عن امرهما. . . ليتني. . . ليتني . . .

تستفيق من شرودها على همهمة الصغير معترضا على إهمالها له كل هذه المدة. ترفعه من العربة تضمه الى صدرها تقبل جبينه تربت فوق كتفه تهدده حتى يهدأ ثم تعيده الى العربة . . .

- ماذا بإمكانك ان تشتري بهذه الدريهمات يا ام عدنان؟

لو ان الحال ايسر لاشترت شيئا ما يفرح قلب هذا الصغير الذي تتركه امه في عهدها كل يوم لكسب ما لا يكاد يسد الرمق.

- قلبي عليك يا حنان! يذيقونها المر كل يوم على المعبر ذهابا وايابا الى عملها لقاء بعض شيكلات في يوم. . . الله يجازيهم الذين كانوا سبب "بهلة" بنات الاكابر! . . . كم تغيرت الاحوال! ما اشد قسوة الايام! . . . صار على النساء ان تعمل لتعيل ابناها .

- ما باليد حيلة. . . مرغمت "يما"! . . ! المخصص الذي تمنحه مؤسسة رعاية اسر الشهداء لا يكاد يكفي ثمن الحليب للصغير . . . يا ولدي! . . تيتم في نفس اليوم الذي أكملت امه فيه اربعينها. . . لا . . . لم يكن ابوه مقاتلا ولا فداثيا ولا منتميا لأي حزب. كان يعمل ليل نهار لتأمين رزق عائلته. قبل الظهر في المدرسة وبعده سائق تاكسي. . . كان ينقل ثلاثة من طلابه الى بيوتهم خارج المخيم عندما داهمهم منع تجول مفاجئ وفي الطريق صطدمتهم احدى شاحناتهم العسكرية. . . ذهب الاربعة بشرية ماء. . . يا ولدي! . . . لم تنفع كل الوصايا التي حشوت رأسه بها

- ابعد عن المشاكل يا رجوتي يا عدنان . . . لا اريد لابنك ان يتربى يتيما كما تربيت انت يا رجوتي. . .

كان لا يخالف لي رأيا ولو على حساب قناعاته. عاش عكس ما كان يشتهي فقط لإرضائي. تحمل اتهامات رفاقه وضغوطاتهم , كتم صرخات ضميره وما انضم إلى تنظيم او حركة سياسية, اكتفى من المشاركة النضالية بزهد روحه في تثقيف طلابه

- أشعر أنني جبان يماً . . لا يليق بابن " أبو عدنان " ان يقعد خانعا هكذا مثل النسوان  
- كفاني معاناة يا ولدي ! رببتك برموش العين, عشت مع ابيك ارملة حتى وهو حي . يوم في البيت وعشرة في السجن, ثم تركني وانتم اطفالا " ينطب عليكم الغربال " . . . إرحم عذابي يماً, يكفي ما تفعله أميرة. تمردت ولا تعمل ألا ما في رأسها تغافلني وتتسلل في الليالي لتوزع المنشورات على البيوت وترشق الحجارة على الجنود مثل الصبيان. أنت عاقل يماً. . . أنت سندي وعوني على تربية إخونك. . .

يا ليتني ما ضغطت عليه! يا ليتني تركته يعمل ما يحلو له لكان مات سعيدا على الأقل. حبيب قلبي, ازداد انطواء في الايام الاخيرة وصار لا يكلمني إلا باقتضاب . أنا امه واعرف ما يدور في باله . كان يتعذب لانه كان حائرا أيرضيني ام يرضي ضميره؟! . . . كان يقول لهم: أم عدنان ما عاش من يعصى لها امرا! . . . كان يطاطئ راسه ويسهم صامتا كلما ذكر اسم ابيه في مهرجان او حشد تأبيني , يحس بالتقصير, يحس ان هذه الاشادة إدانة موجعة

- صباح الخير خالتي ام عدنان . . . أتمنى عليك ان ترجعي الى البيت. . . الاوغاد منتشرين في كل مكان. مثل الثيران الهائجة  
- يخليك لشبابك يا ابني. . . الله يرد عنك شرهم يا ولدي. . . إمراة مثلي لا خوف عليها, الخوف عليكم انتم يا حبيبي.

.....

كانت تهم منعطفة يمينا لتدخل احد المخازن عندما فاجأها بسؤاله: هاي! ! . . . أنت. . . الى أين ؟  
تمتت في سرها: ابن الحرام, صلوك آخر زمن . . . رح انحشر في قفا امك يا ابن الفاجرة  
انطلق يردد محتدا وكل ما في جسمه يرقص رقصات عصبية: ماذا في العربية ؟ ماذا في العربية؟  
همهمت : فيها عزرائيل يقبض روحك يا عايب  
تقدم نحو الطفل يلكزه بطرف بندقيته  
- يكسر ابيك اترك الصغير وشانه  
- خنازير تخبئون العبوات في حفاظات اطفالكم  
- انتم الخنازير لا تراعون حرمة إمراة ولا براءة طفل  
تأدبي يا إمراة وإلا . . .

وإلا ماذا . . . هه! . . . وإلا ماذا؟ . . . أرني ما انت فاعل يا ابن العايبية. .  
وفيما هو لاه يتفقد العربية اطبقت بكلتي يديها حول عنقه وراحت تضغط بكل ما او اوتيت من عزم .  
أستفاقت من ذهولها لترى الطفل بين يدي إحدى الطالبات والجندي قد جحظت عيناه واحمرت اوداجه

في المساء بدأ المنيع نشرته الاخبارية قائلا: إمراة فلسطينية في الخامسة والاربعين من العمر تنتشب أظافرها في رقبة جندي اسرائيلي . . .

نجمه حبيب  
سدني - أستراليا  
٢٠ - ٣ - ٢٠٠١



## أمومة أخلتتنا

- ذهول ضبابي يخيم على حيننا، تناقلنا الخبر همسا جباناً من شرفة الى شرفة وكأنه الموت الاول في التاريخ! !  
... ماتت صفية... انتحرت صفية... ماتت... انتحرت... كفرت... يبست...  
- مسكينة فاق حزنها حدود الاحتمال  
- كان يجب ان تتصبر  
- حسرتي عليها! !... الا يكفيها تسعة اشهر من التصبر؟  
- وهل هي اول من خطف لها ولد في هذه الحرب الملعونة؟  
- هذه إرادته لا يجوز ان نعصى إرادته  
- ألم يقل انه لا يكلف نفساً فوق طاقتها؟  
- كان خطفه فوق طاقتها... .

....

كلنا يعرف ما كان "علي" بالنسبة لصفية ومع ذلك أدركنا لها ظهراً لامبالية... كلنا يعرف ان صفية ترملت  
وعليّ دون الثانية من العمر. كلنا يعرف انها عكفت كل هذه السنين على تربيته. عكفت عن الاهل الذين كانوا  
يريدون لها زواجا ثانياً. عكفت عن الانساب الذين أرادوا له انكسار اليتيم وذلك. عكفت عن الصديقات لئلا  
يأخذن بعض وقت نذرتة لعليّ. ولولا ضرورات الحياة لعكفت حتى عن الوظيفة المتواضعة... ترهبت صفية.  
.. نذرت العقل والقلب والروح لعليّ... معبداً على مدى اربعة عشر عاماً. كان يؤبؤ العين وبسمة الحاضر  
ورجوة المستقبل. وها هي فجأة، ودون سابق إنذار وتوقع، تفتقده. كيف! !... في ايشع أنواع الفقدان...  
خطفوه، خطفوه! !... بعبثية فجأة... ذهب ولم يعد. قالوا لها ان "حاجزا طياراً" \* خطفه. قالوا لها  
انهم رأوه ينزلونه من سيارة الاجرة هو ورفيقه حامد وبساقان الى شاحنة متوقفة على جانب الرصيف  
ولماذا يخطفون طفلاً لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره بعد؟! ... طفلاً درأت عنه أم فوق العادة كل شذوذ  
هذه الحرب واناجيلها  
خطفوه وكفى... ذهب ولم يعد

روعت صفية... نحبت على ابواب المكاتب من كل التنظيمات. استعطفت العدو والصديق... تذلت...  
استصرخت ضمائر البطرك والمفتي والامام وشيخ العقل... زارت كهوف العرافين والمنجمين ودارت في  
حلقات الذكر. اضاءت الشموع في كل المزارات ونذرت عدد شعر رأسه من نذور. رشت وعرضت دفع فدية.  
باعت مصاغها استعداداً لذلك وكانت على استعداد ان تبني لحمها ودمها كي يعود عليّ... كتبت نداءات  
موجعة نشرتها لها معظم الصحف. كنا نقرأها نلوي رؤوسنا نقلب شفاهاً ثم لا نلبث ان ننساها غائصين في  
همومنا... وانتظرت وانتظرت ولكن عليّ لم يعد

وصممت صفية. لم تعد تسأل أحداً. لم تعد تكلم أحداً. لم تعد ترد على أسئلة أحد. نوافذ بيتها دائماً مقفلة  
وستائرهما مدلاة. لم تعد نراها إلا نادراً وإن رأيناها هالنا التغيير الذي طرأ عليها، وكعادتنا نحن من بلدت هذه  
الحرب عواطفهم، تناسيناها، اكتفينا بتزويد عبارة "الله يصبرها على مصيبتها" عندما يمر اسمها عرضاً  
في أحاديثنا.

يوماً إثر يوم تغور صفية في عزلتها. تهزل حتى تكاد تمسي نصف ما عهدناها. وتساءلنا، ترى ماذا يدور بعقل  
صفية؟! ... أمر ما أصاب عقل صفية. حتماً هو يغزو أحلامها في كل هجعة تهجعها.

- تراه طفلا افسدته امومتها المبالغ فيها فراح يعيبه بكل ثمين غير آبه بتهديداتها. تراه شقيا وقد عاد ممزق الثياب بعد مشاجرة مع اولاد الحي. تراه كرقاص الساعة لا يهدأ يقفز من كنية إلى أخرى ومن شرفة إلى شرفة ضاحكا مجلجا هازئا باعتراضاتها. . . تراه غصنا أخضر يورق رتابة حاضرها وزغردة ملائكية تدفئ برودة لياليها

- بل هي تراه في القاوش بين شلة من المخطوفين يسمعون ما يؤدي طهر طفولته من شتائم ونكات فاحشة وتعليقات بذيئة. . . تراه يستعطف ويتنزل كي يسمحوا له بالذهاب الى المرحاض. تراه يبكي مهانا وقد تبول في ثيابه. . . تهب نيران في أحشائها وتصرخ ولدي ولدي ! . . . مذعورة تردد بعض عبارات من آية الكرسي إلا ان ما بها اقوى من ان تهدئه مسكنات. تفتح زجاج النافذة ولكن ما يدخل رنتيها هو هواء مسموم . كيف تسمحين لنفسك يا صافية ان تتنفسى هواءا وعليّ يعلم الله اي الاختناقات يعانني؟! . . . وتردد "وما يصيبكم إلا ما كتب الله لكم", كيف هنا واهجع وانا لا ادري اي نوع من الاصابات حلت بك يا ولدي.  
- يعن لها ان تتوضأ فتصلي علّ الصلاة تشيع في نفسها أمانا. كيف تسمحين لنفسك نعمة الوضوء يا صفيه وعليّ ينوء في تنتنه , في بوله او حتى في برازه؟! . . . تحس جفافا خانقا يعتريها. فترفع كأس ماء تبل به ريقها. كيف يبتل لك ريق يا صافية وعليّ لائب في عطشه؟! . . .

- بل ارتمت على كنية ما حذب فوقها جليس منذ شهور. تخمض عينيها لتراه واقفا امامها. تماما كما كان قبل اثني عشر عاما, اللحية المدببة هي ذاتها وتلك الابتسامة الهازئة التي كانت تميزه, والقميص المشمر الاكمام حتى الكوعين, كان يضع يديه في جيبي سرواله ويقف صامتا. في ملامحه الكثير من الكلام والكثير من الادانة. رفعت عيني واهنتين نحوه

- لماذا تركتنا يا ابا عليّ؟ . . . لو كنت حاضرا لما خطف عليّ . تمرجلوا عليه لانه لا ظهر له يحميه. لماذا لم تهب لنجدته كما يليق بالاباء؟! . . . أما زلت غاضبا لاني كنت اسرف في دلاله ولا استمع لاعتراضاتك؟  
ينطلق صوت ميكانيكي اجوف  
- قتلته أنا نيتك. ذهب به غرورك وكبرياؤك. . .  
- لا . لا . هذا غير صحيح

- أردت ان تمثلي دور البطلة. المضحية. القديسة. لماذا؟ لتتباهي فيما بعد وتقولني ضحيت بشابي لاجلك! . . . لتستعبيه بتضحيتك هذه وتمتلكيه بقوة محبتك المريضة  
- بل أردت له حياة لا يذلها اليتيم. ركضت وتعبت وعملت في المعامل مثل الرجال كي أكون له الاب الذي يهب لا العم او الخال الذي يعز ويمنن.  
لو انك كنت هناك, امرأة ككل النساء, أما ككل الامهات لا نصف أمّ ونصف أب لما حصل ما حصل وردد الفراغ : أنا. . . نية . . . مخ . . . رو . . . رة . . . قا . . . تلة

- بل انها ما كانت لتستفيق من غيبوبة حتى تعود الى اخرى وما تنقضي هلوسة حتى تغزوها هلوسات  
رأته في قبو رطب نتن الرائحة مظلم . . . رباه ! إنه يخاف الظلام! . . . ما هذا؟! . . . الجرذان تتراكم من حوله. هذا واحد يقفز بين رجليه وآخر يلحس أذنه وثالث يتغلغل في قميصه ورابع. . . وخامس. . . وهو يتلوى وينتفض مذعورا لا يستطيع منها لخالصا  
وفي أخرى نصف معرّي يئن محاولا التفلت من قبضة مهووس منحرف يطبق على جسده النحيل بشهوانية شرسة

رباه ما هذا العذاب ! ! . . . رباه أرحني مما انا فيه . . . رباه ابعده عني هذه الكأس. . .  
وراحت يداها تشدان بكل ما فيهما من عزم على حزام لا ندري كيف طوق عنقها



ماتت صافية... انتحرت... ماتت... كفرت... استشهدت... لم يعد بهم

نجمة خليل حبيب

سدني - أستراليا

٢٠١٠/٤/٢٦



## خارج السرب

لم يكن ينقصني إلا ان أضع حلقة في إحدى اني حتى أودي بها الى مستشفى الامراض العقلية او القلبية . . تجاوزت أسوأ مخاوفها. كسرت كل الاسوار التي كانت تحرص على ان تضعني بها على مدى عشر سنوات عمر مجيئنا الى هذه القارة. كانت تلوي شفيتها أشمئززا وتضرب كفا بكف كلما راتني اخب حافيا بالجينز الممزق حول الركبتين وأسفل الالية, تقول:

- لم يعد ينتقصك إلا تاتو (وشم) هنا وهناك وتمسي من شذاذ الافاق المتشردين. اغرب عن وجهي قبل ان افقد اعصابي واحسب ربك ما خلقك . . .

وانا بدوري لم اكن لاقيم وزنا لاعتراضاتها وانتقاداتها التي لا تنتهي, فهي لا تعجبها انكليزيتي الفظة التي تأكل نصف كل كلمة, ولا تسكعاتي جائب الشوارع والازقة متباها بمهارتي في قيادة عجلة بدولابين ارفعها في بعض الاحيان على دولابها الخلفي دائرا دورات لولبية فتنهال علي الشتائم من المارة والسائقين عندما ادهمهم بانعطافة مفاجئة, ولا وانا ارتمي فوق سريري بثيابي الوسخة في حين ان قوانينها تمنع دخول غرفة النوم إلا بعد المرور بعمليات استحمام وتطهير بكل انواع المنظفات والعطورات. إلا ان اكثر ما كان يغيظها هي تلك الوقاحة التي ابدتها تجاه زوج عمتي الذي تعارفوا على مناداته بالبروفسور. اقلد مشيته البطيئة شبه العرجاء , إنكليزيتته شبه اللندنية التي جاءت معه من الوطن الام وهندامه الذي يذكر "بشارلي شابلن".

- بريك اظهر احتراماً لزوج عمته. ان لم يكن من أجلي انا فمن أجل والدك على الاقل  
- البروفسور هه! . . . واروح اقلد لهجته الانكليزية الغربية على مسمعا وفوقيته فيما هو يغرق في الكنبه الوثيرة نافضا اطراف غليونه او منزلا نظارتيه الى طرف انفه استعدادا لواحدة من تعليقاته التي لم تكن لتبهر إلا والدي.

- البروفسور يا ولدي شخصية محترمة. هو الوحيد من كل جاليتنا استطاع ان يحافظ على مركزه السابق ويعمل باختصاصه. ابوك يا ولدي كان محاميا قد الدنيا وانظر ماذا يعمل الان! . . .

وإذ لا تلقى نصائحها ادنا مني, تستنجد بابي

- بريك قل كلمة يا " رفيق".

إلا ان " رفيق", الغارق في احباطاته, لا يعلق. فتنتلق عني اليه تلومه :

- انت لا يهمك كيف يطلع الاولاد: كل همك الاثبات لمحدثيك انك كنت محاميا قد الدنيا والغربة اهانتك وانزلتك عن عرشك. يا زوجي العزيز في هذه البلد لا احد يهتم للعلم والشهادات. المحامي اليوم يشغل سائق تاكسي غدا لا لشيء إلا إذا ثبت له ان هذه الاخيرة تدر مالا اكثر. بريك قل لي هل كانت شهادة المحاماة التي فلقنتنا بها تؤمن لنا الدخل الكافي لمصاريف البيت؟! . . . أشكر ربك. ما تربحه اليوم من المحل الصغير هذا يساوي ثلاثة اضعاف معاشك هناك

واعلق متخذا من صمت والدي شجاعة :

- برفسورك هذا طبل منمفوخ, محنط من القرون الوسطى, موضة قديمة مثله مثل جرن الكبة الذي قضت عليه المولينكس. . . ماذا يعني بروفسور؟! . . . يحفظ شوية معلومات يبهرك بها. قريبا تلغي الانترنت دوره, وسينتهي منشردا يلقط رزقه كالمشردين في شوارع دارلنغ هاربر, او عازف عود مسترزق في محطات قطارات المدينة

- قلت لك تأدب يا عصام. لبتك تصير مثل البروفسور يوما. إعقل! . الى متى ستظل طائشا. ستقضي علي قلة ادبك و شيطانك

.....

لم تكن السيدة عذاب (وهو اسم امي), تعي انني في الخامسة عشرة, لم اطلق طفولتي نهائيا بعد. اقضي

الساعات الطوال خلف الابواب المغلقة اتأمل بنرجسية هذه الطلة البهية التي تطالعي بها المرأة, وانني من خلال نظرات الاعجاب اكتشفت انني "شبووية" لا باس بها, بل انني اكثر من ذلك . لقد اورثتني شعرا كستنائيا لماعا وانفا دقيقا, كما ورثت عن ابي هاتين العينين النجلاوين اللتين تشعان ذكاء وحياء . وانه قد زاد من غروري واعتدادي بنفسي كلمات الاطراء التي اثلقاها اينما حللت: الزميلات , المعلمات, البائعات على الكاونتر عند "تارغت" و"غريس برنرز", زوار بيتنا في عطلة نهاية الاسبوع, عمتي جميلة التي لا تنفك تنقر الخشب كلما رأنتي

- الله يحميه من العين. كل يوم يبدو اجمل من اليوم الذي سبقه . كله هيبية ورجولية

خطوات وادلف الثامنة عشرة, وفي سنتي النهائية من عمر الدراسة , خفّت في تلك الرعونة التي تكرهها والدتي وامسيت ابذل جهدا لاتصرّف بنباله وشهامة كما يقولون في وطننا الام . أهرع لمساعدة جارتنا العجوز في حمل مشترياتنا كلما رايتها مثقلة بحملها. وإذا ما رايت رجلا خانته سيارته فحرننت في منتصف الطريق اهرع لمد يد المساعدة دون ان يكون لي اية مصلحة في ذلك. ولا اتورع عن الانخراط في مشاجرة قد تؤدي بي الى مخفر الشرطة او عيادة الطبيب إذا ما اساء احد هؤلاء المراهقين لفتاة او زهرة في الحديقة العامة . ولكنني من جهة اخرى بدأت احس ان شيئا ما مات في داخلي. لم يعد اي من تصرفاتي السابقة يفريني. أقضي الساعات ساهما. لم تعد الموسيقى تزقق من مذياع غرفتي. وافتقدتني عجلتي, فانا لا انتكرها إلا لقضاء امر ما . حتى حبيبتي جولي لم تعد لتعني لي الكثير , صرت كلما ألقاها احس بالضجر. لا اجد ما اقله لها. وإذا طلبت مني في عطلة نهاية الاسبوع الذهاب الى الديسكو تكون وكأنها تطلب مني تقطيع حطب او قص حشيش الحديقة في يوم كانونى قانظ. امسيت اشعر ان حبها يقيديني . .

هذا الكلام الذي لا ينقطع عن المعدل اللائق . . . عن المستقبل . . . عن دخول الجامعة . . . عن الاختصاصات . . عن المواد التي تكسب درجات اكثر . . عن الدروس الخصوصية التي بدأ أبي يلوح بها. امور لا تعني لي شيئا. . . امسيت امضي معظم اوقاتي على الشرفة التي بناها والدي على غرار شرفاتنا في الوطن الام, الا انها لم تكن مسقوفة بل مفتوحة الى العراء . من على هذه الشرفة كنت ارقب البيوت القرميدية نابئة كالفطر, السيارات المسرعة والمتباطئة, المراهقين العائدين سكارى ليلة كل جمعة يشتم واحدهم الاخر. الجيران يشيعون ضيوفهم بصخب لا يبالي بحرمة السكون الجليل . . . إنني لا امت الى احد بصلة . ارقب النجوم احس بنفسي مأخوذا بهذه النقاط الضوئية اللامتناهية , انه لعالم بديع. كريات تحوم فوقني, تتحرك في حركات احتفالية منتظمة كانها متصلة بخطوط غير مرئية. هذه الحقول من النجوم التي كانت مجرد نقاط من ضوء ايام الطفولة كل ما فيها من جمال مختصر على الاشكال البديعة التي تنتظم بها, أمست الان حيزا لتساؤلات تفضي الى رؤى بعيدة غامضة.

ما انت يا عصام سوى نقطة تافهة في هذا الكون . . . ما هي قيمتك بالقياس الى هذا العالم الممتد الى ما لا نهاية؟! . . . بل ما هي قيمة البشرية كلها امام عظمة هذا الوجود اللامتناهي؟! . . . الوظيفة, المركز الاجتماعي, الحب, الولادة, الموت . . . ما هي بالقياس الى ما يدور في هذا الفلك العظيم؟! . . .

شيئا فشيئا كنت اعود الى حاضري , اعي العتمة المحيطة بي. أعي كتب الرياضيات والعلوم واللغة المركونة جانبا على الطاولة . . . امور لا اهمية لها. لا شيء من طموحات امي كان قادرا ان يحرك فيّ حبا للانتماء الى حياة هؤلاء البشر التافهين . من انا؟! . . . ما قيمتي في هذا الوجود؟! . وماذا إذا اصبحت مهندسا او طبيبا وكسبت الاف الدولارات وملكت بيتا فخما في ال "درلنغ هاربر" او "شمالي سني"! . . . كله هراء كلها فقاقيع صابون . كيف يسعد الناس بهذه الفقاقيع؟! . . .

تكاد السنة تكتمل وها انا اتم عامي الثامن عشر . اقامت والدتي حفلة للمناسبة بذلت كل ما في وسعها

لجعلها حفلة يتكلم عنها الكبير والصغير . إستعارت بعض اواني الكريستال والفضة من عند الجيران, فرشت الطاولات بمفارش بيضاء لماعة, ورشت شجرات الحديقة بفوانيس كهربائية مختلفة الالوان كتلك التي تزين بها الميلاذ, استعادت كل ما كانت تتقنه من وصفات مطبخية ودعت ودعت كل معارفنا من ابناء الجالية. إلا ان صاحب العرس كان غريبا ذاهلا عن كل ما حوله . . . هدايا كثيرة فضضتها كما هي العادة ولكن بلا مبالاة اخرجت ابوي . إلا ان عمتي جميلة غمرتني بعد انصراف الجموع. لم ألحظ ان عمتي حتى حينه لم تكن قد قدمت لي اي هدية . . . حوطت كتفي بيدها الغضة القصيرة, تطاولت هي والكعب العالي الذي ترتديه للوصول الى هذين الكتفين. قادتني الى غرفتي واقفلت الباب وراءها - هه عصام! . . . أن لك ان تعرف شيئا عن جذورك. لا ترمقني بهذه النظرة الهازئة . عندنا ما يمكن ان تفخر به

وقلت في سري: جذور! قيم! مباهاة! . . . كلها امور تافهة. ما انا إلا نقطة عتمة في هذا العالم اللامنتاهي . . . لم تأهبه عمتي لصمتي ولا مبالاتي وراحت تفك شريط الزينة عن رزمة موضوعة على الطاولة امامي , هذه ملحمة كلكامش يا حبيبي . دخت حتى عثرت عليها كاملة وانيقة تليق بالشباب امثالك. إقرأها يا ولدي في ساعات فراغك . انها تحفة فنية تجلب لك المتعة وراحة النفس

- كلكامش؟! . . . من قال لها ان كلكامش يهمني او ان القراءة تهمني. . . إلا ان حبي واحترامي لها جعلاني اظاهر ببعض الاهتمام

بقيت اجزاء الملحمة موضوعة لاشهر على مكتبتي الى ان دفعني الفضول او الملل, لا استطيع ان أحدد, الى تقليب صفحاتها. توقفت عند بعض الرسومات الفنية التي استعان بها المترجم, وشدني الفضول لقراءة بعض الفقرات من هنا وهناك ثم رايت نفسي منسجما اقرا الصفحات ثم اعود الى هذا السطر او ذاك اتأكد من معانيه . عايشت كلكامش دست معه على الشوك تألمت للامه عشت تمرقه وحيرته وتساءلت مثله عن معنى الخلود والموت والحياة .صرت انا كلكامش .صرت انكيدو الحائر بين حيوانيته وبشريته. صرت حفنة الطين التي القتها اورور في البرية. بل صرت كاتب النقوش على الواح الطين. . .

.....

سأني ان تخرج والدتي بعد اجتماعها مع ما يسمونه في هذه البلاد career adviser مطأطئة الرأس مهمومة فقد قال:

- باختصار مسز "رفيك", انا أسف لاقول لك ليس بمستطاع "إيسام" ان يصير مهندسا او طبيبا. . . رأسه مشغول بأمور ليست من اختصاص منهاجنا

نجمه حبيب

سدني أستراليا

## جارتنا آنا

تدفع امامها عربة فيها بعض مشتريات منزلية. تجهد على ان تبدو متماسكة كي لا يهرع لمساعدتها اولئك الذين يتظاهرون بالشهامة بمد يد العون للمسنات. تدفع باكياس المشتريات مذ تخطو خطواتها الاولى داخل العتبة وتلقي بجسدها النحيل المنهك على اول كنبه وثيرة تصادفها. تتمتم في سرها: الايام تأخذ من عزيمتك يوما بعد يوم يا "آنا" لم تعد تنفع معك الفيتامينات والمقويات والهورمونات التي ظننت انها ستوقف عقارب الزمن عن الزحف الى جسدك وروحك.

اتكون "آنا" نادمة على ما آلت اليها حالها من عزلة؟! . . . لا ابدا. فهي معترزة باستقلاليتها وراضية عن الحرية غير المنقوصة التي امنتها لها هذه العزلة - لو انك تزوجت في عمر الزواج يا "آنا" لما كنت اليوم اكثر من ممرضة رخيصة الثمن في بيت عجوز هرم، وفي احسن الاحوال لكنت مثل صديقتك "وندي" التي تزوجت مرتين ورزقت بثلاث ابناء تعيش همومهم وقلقها عليهم ليس إلا . . . على كل، ما كنت لتقولوا لا لو أن "براين" طلب منك الزواج. عشر سنوات والصدافة ظلت صداقة، كأنها خلقت مكتملة كلاله، لم تزد ولم تنقص. . . لا تتظلمي يا "آنا" فقد عشت حياة حافلة ثرية بكل انواع العلاقات العاصف منها والهادئ، البريء والخبيث، الذي دام شهورا والذي لم يدم سوى ساعات. اكثر من علاقة عشيقة مثيرة اطلقت عليها رصاصة الرحمة بدم بارد وبلا ترتجف

جارتنا آنا تسكن هذه الشقة الانيقة منذ ما يزيد على الربع قرن. لا أحد يصدق ان لها جذور عربية، فهي عاذبة وتعيش بمفردها وتلعب الغولف مع "بوي فرند" وتلبس الشورت دون ان تخجل من العروق الزرقاء التي ترتسم خرائط فوق فخذيها. . . جارتنا آنا جاءت الى هذه البلاد منذ ما يزيد على الثلاثين عاما بعد ان ضاقت ببلاد لا تعترف بالمرأة إلا زوجة او امًا او ربة صون وعفاف . كانت على عتبة العقد الرابع من عمرها. عملت لسنين مضيئة على اكثر من خط طيران تعرفت خلالها على شخصيات بارزة في كل الميادين وزارت معظم عواصم العالم وتعرفت على حضارات وثقافات متنوعة. استضافتها افخم فنادق بيروت وعاليه والقاهرة والرباط وطهران. امراء وارباب اعمال واصحاب شركات بنلوا اموالهم لكسب ودها. بعضهم عرض عليها الزواج. زواجا عرفيا قال أحدهم. زواج متعة قال آخر. ولكنها كانت تكتفي بالعلاقة العابرة التي لا تقيد ولا تجر انبالا.

كان اول ما فعلته عند قدومها مهاجرة الى سدني ان غيرت اسمها، وقد ساعدتها ملامحها على الانسجام مع الاسم الجديد. على كل فان فيها دما اوروبيا، فجدتها لابيها الارجنطينية اورثتها شعرها الذهبي الاصفر وخداها الانمشان. . . تؤلمها الذكرى:

- مسكينة جدتي "جوان"، كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما اصابها خرف مبكر، كم كان تصرفاتها تخرجني: تدور في ازقة القرية منفوشة الشعر، تهذي بما يشبه العويل، تلتقط التراب وتدفع به الى قمها او تضرب رأسها بحائط او شجرة فيما تطل النساء من النوافذ شامتات بتلك التي ادارت رؤوس ازواجهن فيما مضى. لا لن يكون مصيرك كمصير جدتك الارجنطينية. لا، لن تنتظري حتى تنلك الشيخوخة وترميك العيون بنظرات الشماتة والشفاه بعبارات التعاطف الكاذبة ولن يفضي بك العمر الى مقبرة الاحياء التي يطلقون عليها زورا دار رعاية المسنين

تغمض عينيها للصورة التي رسمتها لنهايتها بكرامة وكبرياء . يرن جرس الهاتف رنتين ويصمت ، هي إشارة من جارتها وندي معناها ان وقت الشاي قد حان.

وندي ما اتعسها؟ ثلاثة ابناء وزواجين الا انها انتهت وحيدة. ابنها البكر في الاربعين ترك زوجته وابنتيه وانضم الى جماعة دينية متفرعة عن جماعة دافيد قريش الذي قضى عليهم في تكساس فنبتوا في اماكن أخرى من

العالم المتمدن. وابتنتها تعيش عيشة هيبية لا يعرف لها مكان او عنوان. وصغيرها لا يستقر على قرار فهو مرة في مالبورن مع المتظاهرين لاجل حماية البيئة واخرى في نيوزيلاندا يبشر بحقوق اللواتين والسحاقيات, وآخر اخباره انه مع جماعة الناشطين ضد العولمة يتظاهر ويبشر ويخطب من سيائل الى جنوى مرور ابمسقط رأسه مالبورن.

تقوم على مهل. تصل الدرجة الثالثة ثم تعود للتأكد انها اقلت الباب جيدا . ترحب بها وندي تشريان الشاي الممزوج بالحليب , تلح عليها مضيفتها ان تتنوق هذا النوع الجيد من البسكويت. بلا مبالاة تلتقط قطعة الحلوى من يد مضيفتها وتضعها جانبا. تهنيان بما جادت به مخيلة المنيح "راي مارتن" مساء اليوم الفائت. تلتقط صحيفة التلغراف اليومية الملقاة باهمال على المنضدة. تؤلمها صورة الغلاف: امرأة في الثمانين من عمرها تصارع البقاء بعد ان اعتدى عليها معنوه واغتصبها في منزلها. تفتح وندي فمها لتشتتم وتستنكر, فتومئ لها أن اسكتي. تتكلمان عن الحفلة الموسيقية التي ستقام هذا المساء في النادي القريب والذي لا يحضر حفلاته إلا من تعدوا سن "النايت كلب". تسأل وندي عن بريان - لم اسمع منه منذ ثلاثة ايام . . . ليست هذه عادته فهو عادة يهاتفني كل يوم - على كل نراه الليلة في النادي

جارتنا "آنا" أنيقة على غير ما مبالغة, لباسها دوما من النوع الغالي الثمن والكلاسيكي التصميم وحليتها ساعة ذهبية انيقة وسلسلة ذهبية سميكة بعض الشيء تتدلى منها ميدالية نقش عليها علامات غامضة يقولون أنها تعويذة سحرية هندية. كل من قدر له ان يدخل شقة جارتنا لسبب ما, أعجب بالذوق الرفيع الذي يميز ديكور شقتها. سجاجيد صينية جميلة الالوان, مزهريات غالية الثمن, لوحات زيتية لفنانين معروفين وجهاز بيانو فخم وستائر حريرية مطرزة تغطي النوافذ وما قاربها من الجدران

في النادي انتظرت "آنا" قدوم "برايان". ليس من عادته ان يتغيب عن هكذا حفلات حتى انه كثيرا ما يقدم وصلة موسيقية ينتشي لها الحاضرون ويلهبون اكفهم بالتصفيق استحسانا. . . تتناول بعنقها, تتفحص كل داخل وخارج. تقوم الى البار تطلب كأسين من النبيذ, تقدم أحدهما الى وندي, تقصد كشك الهاتف, تدير قرصه, لا أحد على الطرف الاخر. تعيد الكرة ويعاود الرنين مرات ومرات والحال هي ذاتها, تعود الى مكانها بيتدي العرض تنتهي الوصلة الاولى وتبدأ الثانية. ينتشي الحضور ويروحون يتمايلون مهللين تارة مشاركين تارة أخرى. إلا ان آنا لاهية عن كل هذا, ف"برايان" لم يات. لم تعد تبالي بالبرنامج ولا بالعرض انحصر كل همها بمدخل القاعة. تأفف بعض الحاضرين من تصرفاتها التي تعيق متابعتهم للعرض. حاولت قدر الامكان ان تقتصد من هذه التصرفات. فكرت ان تترك القاعة وتذهب الى صالة الانتظار الاقرب الى المدخل. لا يجوز فهذا معناه انها ضجرة من البرنامج وفي هذا إساءة الى مشاعر الموسيقيين والمغنين. اعتذرت لدقائق ثم ما لبثت ان عاودت ترنحاتها وتطلعاتها متجاهلة التأففات التي تعالت من حولها. كل داخل وخارج تفحصته آنا وتحفزت اكثر من مرة إذ خيل لها ان القادم هو من تنتظر. الشاب الذي يصدح على المسرح صمت احتجاجا على تصرفاتها. تخجلها حركته فتجبر نفسها على الهدوء ولو ان عينيها لم تكفا عن الزوغان ذات اليمين وذات الشمال. يتعلق نظرها بشاب يدخل القاعة, طريقة دخوله توحى انه أت لغير متعة الموسيقى. كانت عيناها زانغتان وكانهما تبحثان عن شيء ما. تتفحصه جيدا, وتهرع لامبالية بما تثيره تحركاتها من استياء - اين والدك ؟ هل هو مريض؟

يخفض الشاب نظره. يتلأأ بالاجابة متشاغلا في تسوية ربطة عنقه. يقلقها صمته الذي حسبته دهرًا

- كرستوفر . كرستوفر. اين برايان

يرفع كريس نحوها عينيها ذابلتين

- مات برايان. . .

.....

أصابته ذبحة قلبية دخل الحمام وطال دخوله. . . توجس جاره في الطابق السفلي عندما سمع سقسقة المياه تجري لساعات على وتيرة واحدة. . . كان عاريا فوق بلاط الحمام وجسمه مكوم كجنين في رحم امه . . . سنقيم له مأتما يوم الاثنين . . .

عادت الى شقتها برفقة وندي حاولت الصديقة مؤاساة صديققتها فأخفقت. تركتها وندي بعد ان احست ان وجودها لا فائدة منه:

- اكلمك غدا بشأن الجنازة. . . . تصبحين على خير. . .

دخلت غرفة نومها خلعت السلسلة الذهبية من رقبتها والقتها بلامبالاة فوق طاولة الزينة. . . بدأت بخلع ملابسها, تركتها تتساقط قطعة قطعة دون ان تتدخل في تغيير شكلها او مكانها. ( لطالما كانت امها توبخها على إهمالها هذا. حتى انها في احدى المرات رمت لها ثيابها من النافذة). تأملت اللحم المغضن فوق البطن والفخذين, الجيوب المنتفخة تحت العينين, العروق الزرقاء فوق الذراعين. سرحت شعرها فبدت جلدة رأسها التي كانت قد جهدت في الصباح على إخفائها بما تبقى من شعر. تأملت اواني العطر فوق الطاولة. تأملت عشرات الزجاجات المختلفة الاحجام التي كانت قد اشترتها من السحرة والمشعوذين. . . زجاجة تختلف عن غيرها, محتواها لا يطيل العمر ولا يجلب الغائب, حان اوانها. أشعلت شمعة من تلك التي تبتث روائح عطرية. قامت الى النافذة واحكمت إغلاقها بدت الغرفة مليئة بالاشباح والارواح. فتحت خزانة ملابسها, كان فستانها الحريري الاسود يبدو كشيح. انزلته فوق جسدها العاري, أثارت ملامسة الحريري قشعريرة غريبة في بنها. . . تأملت نفسها بالمرآة. لو ان واحدا من رسامي عصر النهضة شاهدها لرسم لوحة رائعة في صاحب الجلالة العدم

- هكذا سيجدونك غدا يا "أنا": حطبة جف ماؤها. قد يتهامسون ويتساءلون, إلا ان احدا لن يتوقف ليفكر ما دار بخلدك قبل الرحيل او اية هواجس واحزان قادتك الى هذا القرار. قد يحزن او يأسف البعض إلا ان احدا لن يستوقفه هذا الحزن او الأسف اكثر من بض لحظات. رفعت الستارة قليلا, كانت ليلة ربيعية شديدة الرطوبة. بعض مراكب تنهادى فوق صفحة الماء في ال "دارلنغ هاربر". مشهد كان دائما يؤنس وحشتها إلا انها تحس إزاءه اليوم إحساس التائهين الذين قذفتهم فيما مضى الزوارق الضالة الى هذه الجزيرة المستوحشة القصية. ارتدت الى الورااء سقطت الغرفة مرت ثانية بما يشبه الغيبوبة. مشت باتجاه السرير وفيما هي تلقي بثقلها فوقه انحرف راسها شمالا, طرقة فوق المنضدة. . . طرقة اخرى. . . آخر ما سمع في الغرفة قبل الصمت الاخير

نجمه حبيب

سدني استراليا

٢٠٠٢/٧/١٥



## للمرأة في يومها العالمي

نظّم الاحتفال بدقة. . . زين قاعته بالورود والرياحين، دعا متحدثات ومتحدثين من كبار المدافعين عنها شرقا وغربا. قدم لكل منهم عبارات مؤثرة عاطفية دمعت لها عيون معظم الحاضرين. عدد الاجحافات الواقعة على المرأة في عالمنا العربيّ البائس. أسف للواتي يعملن بصمت على خدمة الرجل منسحقات في بيوتهن دون تقدير ولا اعتراف بفضل. تكلم بامتعاض عن العشائرية التي قضت بنبيرة اخ قتل اخته باعتبار ان ما فعله هو دفاع عن الشرف، انتقد البرامج التلفزيونية التي تروج لتعدد الزوجات وخص بالنقد الحاج متولي وزبجاته الأربع، انتقد النظم التي تمنع المرأة من حق الانتخاب والآخرى التي تحرم عليها قيادة السيارة. حلل بمنطقية ممتازة مسألة "وللمرأة نصف حصة الرجل" واقنع من سمعه ان النبي صلى الله عليه وسلم لو رأى كيف تجحف اقواله لما سره ذلك، طالب للمرأة بحرية الانجاب وعدمه وهاجم الكاثوليكية لانها تحرم المرأة من حق الاجهاض. دافع عن جسد المرأة ووجوب تمتعها بحرية التصرف في هذا الجسد، شرق بدمعه فيما هو يتحدث عن العنف الذي يمارسه الرجال، في كل بقاع العالم، العاطفي والنفسي الذي يفوق ضرره العنف الجسدي.

لم ينس في خضم ثورته الانفعالية تلك ان يّذكر بالاساءة التي تلحق المرأة الغربية، والتي ان كانت قد تحررت من كل ما سبق ما زال يلحقها الاجحاف من جراء معاملة المجتمع الرأسمالي لها كسلعة يستغل جسدها في الاعلانات التجارية والدسائس السياسية. صفقت له الجموع بحماسة واثنت على تجرئه على المتوارث من القيم والتقاليد، تجرؤ قد يعرضه لانتقادات او حتى إساءات حماة الذكورة انتهى الحفل. عاد بسيارته المرسيديس الى شقة مفروشة في أحد الاحياء الراقية. استقبلته بلهفة شهرزادية. خلعت عنه بذلته وربطة عنقه وحذاءه. قدمت له كأس ويسكي يزيج عنه بعض ارهاقه . قضيا بعض وقت في غرفة نوم شحيحة الاضاءة

في ساعة متأخرة من المساء عاد الى بيت الزوجية في إحدى الضواحي الشعبية. استقبلته بلهفة حارة مشفقة على ما يبئله من جهد مضم طيلة النهار وقسما من الليل. تأفف من هذه الحياة ومسؤولياتها. زوجة واولاد ومصاريح لا تنتهي. تأفف من إهمالها؛ فوضى في كل مكان: لعبة الصغير على المقعد وكراسة الكبير فوق السجادة، منشفة الحمام ليست في مكانها، والطعام اعيد تسخينه بالميكروويف. صرخ غاضبا: "طول النهار ملتھية بالبرامج التلفزيونية التافهة. سيقتلني إهمالك. عليّ الطلاق إذا ما اعتدلت لأتزوج عليك" بكت وتأسفت ووعدت ان لا تعود لاغضابه ثانية

نجمه

٢٠٠٢/٣/١٣

## قبل ان يتعمد بالشهادة

انهى صلاته وسلم. كانت رائحة قهوتها قد عبقت في المكان فملأته انتشاء. ارتشف اول رشفة من قهوته وقال فيما هو يهيم بالجلوس: الله! . . . الله! . . . اغمض عينييه وسبح ربه على نعمه الكثيرة. جلس الى جانبها التصق بها اكثر مما في عادته ان يفعل. مر بيده فوق خصلات الشعر السوداء اللامعة فوق جبينها وأزاحها الى الوراء. كم يحب هذا الجبين العالي المملوء بالكبرياء. . . مرر يده فوق بطنها المنتفخ وتأمل عينيها الحالمتين وقال: تسميه نضال. مهما كان جنس المولود تسميه نضال.  
- متى تعود سألت فيما هو يطبخ قبلة فوق جبينها  
- حسب التساهيل

حاذى الغرفة المجاورة ونادى دون ان يقرع الباب : ادعيلي يمًا  
انطلقت مع ازيز الباب دعوات امه التي فتحت مسرعة تلف راسها بالمنديل الاسود: الله يرضى عليك يا حبيبي ويجعلك في كل خطوة سلامة. وحياتك يما لا تنسى ان تمر على الهلال تسال اذا كانوا جلبوا دوا الضغط.  
حيا "ابو رباح" المقرفص عند عتبة بابه. طريف هذا الختيار, يرفض ان يغير القمبار. كل هذه السنين في المدن ولا يزال يصير على القمبار وسيكارة اللف. إصولي عتيق.  
ماذا يفهمون دعاة التمدن من الاصولية؟ هم يعتبرونها عيب, تهمة, جريمة. منذ مدة قصيرة كانوا يقولونها بفخر يعنون بها الطهر, النقاء, فم النبع قبل ان تلثمه الايدي والارجل والعيون, لله كيف يسوقون الكلام حسب غايتهم, وما اغباننا ننحرف في تسويقهم دون تفكير. اليوم يسوقون كلمة جديدة اسمها "شفافية". لم تعد تخلو جملة من هذه اللفظة "الشفافية". من استهدى على هذه اللفظة وكم سيطول عمرها قبل ان تسمي مثل غيرها عيبا او شتيمة؟! ما لي ولهم. لهم قاموسهم ولي قاموسي. لهم طرقهم ولي طريقي. لهم ايمانهم ولي ايماني. لهم فلسطينهم ولي فلسطيني  
كانت الشمس قد بدأت ترسل اشعتها خجولة شاحبة. احس دفئها يسري ناعما في عروقه ما اجمله من صباح لا يعكره إلا آثار دباباتهم وقصفهم الذي لا يزال يسد ازقة المخيم. تتسابق دجاجات عمدته وضة على نيش تربة عجفاء . زعماؤنا اللاهثين وراء المفاوضات كدجاجات عمدتي وضة. تربتهم خلت حتى من دودة صغيرة تتقاتل عليها عشرات المناقير. على كل غدا يبأسون ويعرفون ان الله حق  
سيختلفون غدا على تسمية عمله: إستشهاد؟ فداء! انتحار! ارهاب! . . . كله لا يهيم انا لا افعل ما افعل لاجل قولهم ومباركتهم إنه إيماني وحدي وإن كره الظالمون. بيتسم فيما هو يقرأ الشعارات التي شوهاها القصف من جملة ما شوه. . . حتما سيقومون له ماتما رمزيا. ليتهم لا يفعلون. لا لزوم لهذه المراسيم الوثنية. لا يريد لدمه ان يسييس. . . فكر بالمولود الذي سيجيء الى هذه الدنيا يتيما. وإن يكن ! . . . النبي صلى له عليه وسلم عاش يتيما حتى انه تغذى على حليب مرضعة. قد يهدمون هذا الخص المسمى بيتا. لن يزيد هدمه ولن ينقص على كل الهدم الذي مارسوه. . . المهم ان لا يتمكنوا من هدم النفوس . . .  
تمنى لو كان اوفر حظا. لو انه ولد في زمان غير هذا الزمان. . . استغفر ربه: "الهم لا اعتراض على مشيئتك". قرا آية الكرسي اشاع الدعاء طمانينة هادئة في نفسه ومشى الى قدره بفرح لا يستطيعه إلا من منحه ربه نعمة الشهادة

نجمه

٢٠٠٢/٦/٢٨

## همس على شفير الرحيل

نعمان لا يحب ازيز الطائرات الراعد. عندما كان صغيرا كان يهرع مختبئا بثياب امه كلما مرت دراجة نارية مقرقة، وكان اول من يتكلم في زاوية آمنة عندما يداهم حيهم قصف مفاجئ

نعمان لا يحب ان يموت ليس لانه يحب الحياة فقط بل لان موته سيحزن امه كثيرا. عندما خطف ابوه ولم يعد ظلت لسنوات تبكي. تسربت بالسواد وضعت منديلا اسود فوق رأسها وبدأت تهرم بسرعة. حتى انها لم تعد تحبهم. لم تعد تدلله كما من قبل، ولم تعد تصنع له الاطباق التي يحبها، صارت مثل خادمة ام بشير تطبخ وتضع الاكل على الطاولة دون تعليق، دون ان ترجوه او ترجو عامر ليزيد. ظلت لسنوات لا تأكل حبة حلو، وحرمت صنع الكاتو والكنافة في البيت. صحيح انه كان يشتري كنافة وكاتو من عند العريسي ولكن ما تصنعه امه اطيب. اكثر من مرة خبا قالب الكاتو عندما يزورهم احد على غفلة لكي لا تقوم امه بتقديمه للضيوف.

عزة ايضا ستحزن. ولكن حزنها لن يكون بمثل حزن امه. ستندم على كل المشاجرات التي كانت تفتعلها معه. ستندم لانها ظلمته يوم اشتكته لعامر وقالت نعمان يدخن. كان عادل قاسيا معه يومها قطع عنه المصروف. بقي لاسابيع يأكل سندويشته ناشفة ولا شفة ببسي. عزة تغيرت كثيرا بعد ان تهجروا وسكنوا في برج البراجنة. صارت تصرخ اطلع برة كلما دخل عليها غرفتها. صارت تقضي وقتها بقراءة مجلات تخفيها تحت الفراش عندما تتخل امها الغرفة فجأة. يوم رمى لها المجلات عن البلكون الى الشارع قالت له "إنشالله تموت" ستتذكر هذا وتبكي.

لا يستطيع ان يتصور مدى حزن رنده ولكنها حتما ستندم لانها كانت دائما تتباهى عليه بتفوقها ولا تكف عن ترديد: "طالع حمار لا تنفع لأي شيء... روح كب حالك بالبحر". صحيح انه كان يكرها لذلك ولكنه كان يتباهى بها كلما سأله معلم جديد عن قرابته برنده. كان يقول بالفم الملان رنده اختي. ولكن رنده مغرورة دائما تهزئه وتقول انها تخجل ان يكون لها اخ كسلان مثله. ستندم على كل كلمة جارحة قالتها في حقه.

قد لا يحزن عادل كثيرا، موته سيخفف بعض الحمل عنه. عادل هذا عواطفه جامدة، لا يعرف إلا الواجب. في هذه السن وليس له حبيبة او خطيبة.

هل ستبوح إبتسام بما كان بينهما؟! . . . هل ستحضر جنازته؟! . هل ستجلس الى جانب امه ورنده وعزة تتقبل العازي في موته؟! . . . لا يظن ذلك. إبتسام تخاف من اخيها علي. كثيرا ما كانت تقول له مازحة كلما جاء يضمها ويقبلها " علي فوق الشجرة"

سوف يصلون عليه في كنيسة مار بطرس وبولس في الحمرا. وسيقول ابو ماهر كلمات جميلة في تأبينه. عند كل وقفة له ستجش امه بالبكاء ولكنهم سيدفنونه في مقبرة الشهداء. ابو عمار قال كل الشهداء يدفنون في مقبرة الشهداء، إسلام ومسيحية. هو لم يابه لانتقادات رجال الدين. قال لهم هؤلاء صاروا إسلام بالشهادة. هو يحب ابو عمار ولكنه يسكت عندما ينتقده ويشتمه كوادر الجبهة الشعبية كي لا يبدو سانجا لا يفهم السياسة

سيلف النعش بعلم فلسطين وسيطلق رفاقه الرصاص تحية للشهيد البطل. ستكون الكنيسة مليئة برفاقه المسلمين الذين سيسخرون من هذه الكلمات التي تقال بلغة لا يعرفون ما هي. قد يتضايق بعضهم من رائحة

البخور القوية ويترك الكنيسة بسبب تلك الرائحة . . . قد يسخر عماد ورسمي من هذه الشموع الصفراء الكبيرة المضاءة في عز النهار ويقول مثل هذه الشموع تكفي مؤونة الاضاءة لمدة شهر. عندما سيقومون بحمل النعش ستزداد الشهقات وسيرتفع النحيب : ستصرخ أمه: مع السلامة يا حبيبي يا نعمان, سلم على ابوك, وربما تغيب عن الوعي. قد تطلق ام جميل زغردة مفاجئة كما تفعل دائما وقد يتبعها بعض الرفاق بانشودة " يا ام الشهيد زغردي كل لاولاد ولادكي . . . " كم هو جميل ومحزن موت الشهيد كم هي جميلة كلمات التابين كما هي جميلة اللوحة الرخامية البيضاء المكتوب عليها اسمه وتاريخ ميلاده وعبارة استشهد دفاعا عن بيروت المقاومة بتاريخ . . . ١٩٨٢

أحس انه على حافة البكاء لا بسبب ما سيصير اليه بل بسبب هذا الشجن الجميل والحزين كالموسيقى تساءل: لو انهم علموا ان ما يجول في فكره من خواطر بين الحين والآخر هل كانوا سيظلون يعتبرنه شهيدا؟ لو علموا انه في بعض الاحيان يندم على هذا التطوع وعندما يشتد الخطر يتمنى ان تنتهي الحرب حتى وان لم تنتصر الثورة . لو علموا انه تظاهر بالمرض ليلة البارحة حتى لا يشارك بالهجوم على مثلث خلد الذي قام بنيابة عنه رفيقه هاني واستشهد خلالها. لو علموا انه كان يحب ان يتفرج على صور النساء العرييات ويقرا النكات الجنسية اكثر مما يحب قراءة كتب ابو ابراهيم, لو علموا انه كان يبخل عن شراء مجلة الهدف حتى يوفر ثمنها ويشترى مجلة بانتي هوز. . . سرّ نعمان لان الافكار ليست كالثياب فهي لا تظهر البقع القذرة التي تلتخطها.

. . . .

عندما جاء ابو مجاهد وبرفقتة ثلاثة من رفاق نعمان بثياب مرقطة, قالت لهم كوكب - لا ضرورة للكلام, لقد رايت ليلة البارحة وقال لي وداعا يا ام عامر. وصاني ان لا احزن ولا البس السواد ولا اتوقف عن خبز الكنافة. قال ان حزنها سيحزنه كثيرا ويجعل موته حقيقيا

نجمه حبيب

٢٠٠٢/٧/١٥

سدني استراليا